

العابر وهاجس البحث عن المكان الضائع

قراءة أولية لأعمال الكوني

د. لحسن كرومي

جامعة بشار

تمثل الصحراء مركز الثقل السردي، والفاعل الرئيس لفعل الكتابة وبؤرة عالمها لدى إبراهيم الكوني؛ الذي يعنى أدبه بحياة ابن الصحراء أو العابر، الذي يراه لم يزل كما هو لم يتغير على الرغم من الصراع والتطور الحضاري الحاصل في العالم وفي الصحراء نفسها؛ ويرسم لقومه خطوطا تاريخية أصيلة تربطهم بالعالم والتاريخ العميق للإنسانية. فيأخذ أنطولوجيتهم (الولادة . الموت . التجدد) وكأنهم نموذج للعنقاء الخرافي الملتهب بالوجود والفناء في الوقت نفسه؛ مهتما بسر تجددهم وبعثهم المستمر الذي يراه كامنا في الموروث القبلي والتقاليد المتأصلة. ويحرك الشخصيات على ضوء هذه الإحداثيات موضحا الرؤية النفسية لهم؛ فالعمل النفسي هو الذي يحركهم ويجعلهم في صيرورة دائمة¹. فيتكرر هذا العامل في كتاباته القصصية والروائية. لعل الهاجس الذي يسكن الكوني، هو البحث عن هوية قومه الثقافية، واستعادة ذاكرة التاريخ المجهول من النسيان والمحو، تلك الذاكرة الموغلة في القدم والمرتبطة في الوقت نفسه بالمأثور الشعبي وبتراث الأسلاف المتناثر عبر الصحراء، والمتمثل في كتاب أنهى الضائع.

تضع أعمال الكوني القارئ أمام محاولة اكتشاف أبعاد العلاقة المركبة بين الإنسان والمكان، فالصحراء تصبح فوق دلالتا المكانية والأسطورية، إطارا تاريخيا زمانيا لاكتشاف الذات بالمعنى الخاص والعام الذي يجاوز البقعة المكانية بسكانها وتراث الطوارق فيها، إلى قيمة دلالية أوسع من ذلك بكثير تمس الوجود برمته...

أ- العابر وسحر المكان:

إن الصحراوي، الذي لا يكف عن طلب الحرية والسكينة في الآفاق، يعشق الصحراء إلى حد الجنون لأنها تضمن له التخلص من الاستعباد وتمكنه من السعي العنيد إلى الحرية. ويذهب الخيال الروائي في التعامل مع الصحراء بعيداً، فيؤنسها ويؤنثها، ويدخل في الصحراء كل غموض المرأة¹، وإثارتها، — حقيقة حضور المرأة الإنساني والجسدي². فالصحراء تستقبل الغيث كما تستقبل الجميلة حبيبا أب من سفر على نحو ما يتجلى في الملفوظ التالي: "فاستغاثت الأرض شوقاً، وند عنها فحيح، انطفأت النار المحبوسة في صدر الأرض منذ ألف عام وبدأ الوحش يحتضر، وحش الجذب والخفاف والقبلي. تنفست الصحراء الصعداء وفتحت ذراعها لاحتضان معشوق غاب طويلاً، وانتظرته طويلاً"³. وهذا ارتفاع شاعري مشحون بجماليات المكان الصحراوي إلى حديث الروح والأنوثة والجمال الفاتن...

"- ألم نجد في معشوقتنا الصحراء وطناً؟

- وجدنا أنفسنا في الصحراء لنعبر الصحراء، لا لنسكن الصحراء!

ألست صحراوياً؟ ألم تعشق هذه الحسناء (التي نسميها صحراء) يوماً؟

- لم يعشق الصحراء مخلوق كما عشق الصحراء هذه المخلوق الذي يقف

قدامك. فلماذا تكابر؟

لأن ما نعشقه هو الذي يجب أن نتخلى عنه.

- ما أقسى هذا!

- والصحراء ولدت صحراء لتطردنا. الصحراء خلقت صحراء لتستدرجنا إلى

المتاهة

وتذهب بنا إلى سبيل اسمه العبور. الصحراء خلقت صحراء لتعلمنا التخلي

لأنها تعلم أننا عشاقها الذين لا يطيقون لها فراقاً أبداً⁴. الرواية تتميز بخاصية

الحوارية التي تمكنها من الجمع بين المتناقضات والأضداد، الحب والتخلي، الحضور والغياب. فالصحراء تقود العابر حائرا إلى مجابهة مصيره بشيء من العبثية، على الرغم من حبه الكبير لهذه العنود الجموح.

إن الطارق لا يفتأ يعشق الصحراء عشقا صوفيا، ويحبها حبا عذريا... لا يمكن أن ينافسها مخلوق فيه، فلم يعد للروح والقلب مطرح لغيرها، فلا يجتمع معشوقان في قلب المحب أبدا. لذلك "تتلازم حالات العشق القصوى في نصوص الكوني بعنف بدني ومعنوي توقعه الذات العاشقة بنفسها وبالمعشوق في آن واحد، وذلك لأن المسكون بالصحراء لا يستطيع أن يرهن قلبه في يد معشوق آخر. فيلجأ إلى تحطيم خيوط الارتباط والامتلاك بالتخلي، أو بفعل قتل يتحقق نصيا أو يتخذ صورة مجازية، على حين يتكرر في مواضع عدة من النصوص كقول الراوي: "نحن لا نتخلى إلا عن الأشياء التي نحبها أكثر مما ينبغي.

وأنت لا تقتل إلا من أحببت أكثر مما ينبغي. "لهذا تختفي الشخصيات الرئيسة إما بالاختباء في مغاور الجبال أو بمواصلة الترحال الدائم في البيد، على نحو ما يتجلى في روايات المجوس، فتنة الزؤان⁵ بالخيكتور، واو الصغرى.

في البحث الدؤوب عن المكان الضائع، باعتباره استعادة للذات والهوية المتشظية يرسم الناص فضاء عالم خاص، هو عالم الصحراء ذي الدلالات المتعددة Polysémique.

في أعمال الكوني لا تعني الصحراء هذا المكان المرئي، المفعم بالفراغ اللامحدود، والفاغر فاه دوما؛ وإنما الصحراء هي رمز أو بالأحرى، مجموعة رموز حية، وإحياءات ثرة مكتنزة بالدلالات المتوثبة، الحاضرة والمؤجلة، التي تتوارى خلف تخومها النائية أسرار وأشواق وأشجان وحنين وتصورات وفلسفة ومواقف من حقيقة الواقع والحياة والإنسان والجود... فالكاتب يكتب عما لا يراه يكتب عن العالم الذي يتخيل وجوده، على الرغم من علمه بعدم وجوده في حدود العالم

الحسي. نفي المرئي في اللامرئي، إعدام الواقع بواسطة الحلم، إلغاء المكان الوجودي البارد في مملكة أسطورية بلا شطآن ولا حدود.⁶ إن اهتمام الكوني بهذا المكان الحلمى المفقود جعله يكتب رواية "البحث عن المكان الضائع"، كما فعل

بروست من قبله في عمله الشهير *A la recherche du temps perdu* يوظف الروائي الصحراء لكي يجعلها صورة يفجر من أبعادها أشجانه، ويفجر من سماتها معاناته ويجعل منها فضاء رحابا للتصوير والتمثل والتوسع في المشاعر الإنسانية. الصحراء عند الكوني يعلي بناءها المتخيل، فتولد مدينة حلمية متألئة الأنوار، ندية قريبة من القلب. إنها واو الرمز، والميعاد المستحيل...

توحي أعمال الكوني القصصية والروائية، بأنه يعيش حالة اغتراب رهيبية في هذا العالم المادي الكئيب؛ إنه عابر هذه الشوق العارم إلى فردوس الخفاء، الذي لا يعترف بالمكان الأرضي البارد الفج. إنه لـ(شاعر) تائه، غريب الديار "يرمق الآفاق البتول البكر بلهفة العاشق، فيسيل في حدقة [هذا] الغريب دمع تيه، وأحزان وحنين⁷.

أعمال الكوني توفر للقارئ لذة القراءة، وتفضي به إلى متاهات السؤال والتأمل؛ لكونها تتوافر على دلالات مميزة في البسط والتفصيل، وإيحاءات اللغة، تلك التي تسري في الكتابة وتتسج مكوناتها من حميمية التواصل، ومناخاته بوصفه علامة تفصل بين لغة الإنشاء ولغة الإبداع. إنها تفتح أكثر من رؤية، وتدفع إلى أكثر من حوار، رافضة دعوة القراءة الأحادية. من هذا المنظور، يدخل القارئ في عملية الإبداع بوصفه طرفا فاعلا فيها، لا "متلقيا" سلبيا. فهو يحاور الكتابة ويستنتقها، ويسائلها؛ في محاولة جادة دؤوب تسعى إلى اكتشاف أبعاد الوعي والصراع فيها... تتشكل الحكاية والسرد الروائي من "المكان" ومن وعي أفرادها إذ تتغمر لحظة الكتابة في استرجاع الماضي بتفاصيله بنبرة حنينية.

فيأخذ الحنين إلى (المكان الضائع) صورا متخيلة تتميز بالبراءة والغموض واللمحة الدالة. وبأبعادها الإنسانية وحميمية انتمائها إلى الصحراء.

ب- العابر وغواية التيه يشير الخطاب الروائي إلى أن الآثار الدالة على "واو"، كانت باقية وماثلة للعيان، وأنها لم تندثر إلا بفعل السيول العارمة، وقوة الفيضانات الطوفانية الشهيرة التي اجتاحت تلك المنطقة الصحراوية عام 1913.⁸ وقد أشار الراوي إلى هذه القضية في نهاية رواية المجوس ج2/ ص390 - 391. والملاحظ أن "واو" - باعتبارها حيزا حلميا أو فضاء أسطوريا مرغوبا فيه - تشكل بؤرة الاهتمام، أو نقطة الارتكاز التي تلنقي عندها كل أنظمة التفكير في أعمال الكوني القصصية والروائية.

ولقد أعاد الكوني صياغة الأمكنة والعالم وفق رؤية اتخذت صورا مثالية وإنسانية، تجاوز بها المساحة الجغرافية المجردة للأماكن إلى كونها تشكيلا روحيا ووجدانيا يزخر بالحركة والحياة؛ فاستنطقها ونقل أحاديثها وتاريخها عبر كتاباته. وكان ذلك - حسب رأينا - تعويضا نفسيا لافتقاده وطنه الروحي الضائع في فلات الفكر وهواجس النفس.

وفي هذا السياق يرى الكوني: أن "الوطن هو الصحراء، ولكنه ليست الصحراء بصفقتها الجغرافية المدونة في معاجم البلدان، الصحراء هنا من طينة أخرى، صحراء استعارية صحراء باطنية وجدانية؛ لا تزدهر ولا تنتعش إلا في ظلال الروح".⁹

ألا يمثل هذا الأمر محاولة للسمو بالنفس والارتقاء بها إلى عالم نوراني بعيد من حمأة الواقع المادي وبلادته؟؟؟

لعل هذا الوطن الحلمى الذي يرسمه الخيال الشار، هو ما ينشده أهل الصحراء، فهم في بحث دائم عن المهد الأول الذي ضيعه مندام¹⁰ ذات يوم.

العابرون في الصحراء يمارسون غواية السفر والتيه في البيد عملا بوصية
أنهي التي تقول إن: "قدر الأجيال الصحراوية هو الرحيل"¹¹، استكشافا للواحة
المجهولة، طلبا للهاجس الخفي، سعيا لنيل الوعد، اندفاعا للإمساك بتلابيب
الحقيقة. وفي هذا البحث الملتهب بجمر الشوق والحنين يبرز سؤال: كيف السبيل
إلى "واو" الفردوس امفقود؟ !

يقول أحد العابرين: "نحن مسافرون أضعنا الطريق إلى "واو" التي نسعى
إليها..ضعنا في الماضي وأضعنا المستقبل" وهكذا يمضي الطارق في متاهات
البيد، منقسما على نفسه وحيدا متلفعا بأحزانه.

سفر العابر تعويض نفسي لافتقاده "الفردوس الضائع"، واو الحقيقة المطلقة؛
إيماننا منه أن السفر يغسل الروح ويطهرها من أضرار المادة. وأن الاستقرار في
مكان معين، قيد وعبودية، وتقليص لحضور الإنسان أمام سلطة الأشياء. على
نحو ما يتجلى في الحوار الآتي:

- قال الزبرجداني:

- هذه مساوئ الاستقرار في المكان. كلما بقيت مدة أطول كلما تكومت
حولك لأشياء...

- ولذلك يعشق الصوفيون الترحال والتنقل. في التنقل تحرر من قبضة
الأشياء..- الخلاص من الأشياء والتجرد من الممتلكات نعمة تعلمها من
الصوفيين. أو ربما من الصحراء...الله أعلم"¹². العابر الباحث الحقيقي، كان يرى
نعيمه في البحث نفسه، لا في غاية البحث. وأن الاستقرار هو أصل كل الشرور،
في منظور القبيلة الصحراوية، دين الصحراوي الاستنفار المستمر والاستعداد
الدائم للرحيل. البحث عن واو الخفية السماوية التي لم تلوثها يد الإثم¹³.

"نعم نحن على يقين أن من يسكن الأرض، من يستسلم لأرض، من يفلح
أرضا، ويأكل من الأرض، ويقيم على الأرض بنيانا ليسكنه، ليس سوى عبد من

العبيد. الناموس يقول: "كل من يسكن أرضاً أمد أربعين يوماً صار عبداً لها". كان أسلافنا يرون في العمران خطراً مميتاً يهدد حريتهم، يهدد وجودهم، كانوا يغيرون على الواحات، وينظمون الحملات على مدن الشمال البعيد، ليهدموا الأبنية، ويحرروا من جدرانها العبيد

. لا أدري الأجداد نظموا الحملات نحو جهات الصحراء الأربع ليظهروا أرضها من العبودية. هذا ما رواه عنهم الأولون وتناقلته، فيما بعد، الأجيال. أرادوا أن يخربوا العمران في كل الصحراء عملاً بوصايا الناموس. قاوموا زحف العمران طويلاً، ثم توقفوا. ربما لأنهم اكتشفوا أن قدرة الإنسان على البناء تفوق قدرة الإنسان على الهدم، فتوقفوا ووضعوا بينهم وبين أهل العمران عهداً يعطي لمريدي الاستقرار الحق في رفع الحجارة وتشيد الأبنية والبيوت والأسوار، مقابل أن يدفعوا لأهل الصحراء مكوساً جزاء الأمان¹⁴.

فالصحراويون يعتقدون أنهم ولدوا لمهمة أخرى غير الاستقرار، ولدوا ليشقوا وكانوا يرون أنه من لا يشقى لا يلقى. العابر تعصف به حمى الأشواق، فيرى الآفاق البتول بلهفة العاشق فيرى نعيمه في رحلة البحث عن مملكة الأنوار غير أبه بنتائج الرحلة الموحجة. واو هي المستحيل الذي لم يعد العابر يطلب غيره.

من هذه الزاوية، تعد الصحراء موضعاً للفراق وليس للقاء، أفقا للمغادرة وليس للمجيء. فالصحراوي تواق دائماً للبحث عن أحلامه الدفينة والعميقة... تيهه الطويل في البعيد، علمه أن الخروج هو ثمن الدخول إلى "واو"¹⁵ يشير الخطاب الروائي إلى أن البحث عن الواحة الضائعة، لم يكن فردياً وحسب، بل جماعياً أيضاً قال الزعيم "ولم يكن يخطر ببالي أن أرى نجعا كاملاً يهيم في القارة بحثاً عن الوطن المفقود"¹⁶ إن تعلق الشخصيات بالبحث عن المكان المفقود وعجزها الدائم عن بلوغه، جعلها تحس بالضيق في فضاء قاس لا تحده حدود. لقد توارث أهل الصحراء عن أسلافهم، أن العزلة هي قدر الباحث عن واو؛ لقد شكل موضوع

الرحلة المقرونة بحال الشعور بالإحباط ظاهرة مهيمنة في كتابات الكوني. تجسد ذلك على المستوي اللغوي في إشاعة معجم من مفردات وصور ورموز الحزن والاستيحاء والمعانات والمكابدة وخيبة الأمل...والتي يمكن دراستها وتصنيفها بتطوير مجموعة من الحقول الدلالية الخاصة بذلك.

تشكل (واو) علامة نصية محورية في كتابات الكوني القصصية والروائية؛ وقد جعل منها إيقاعا شاملا يتسلل إلى خلايا النص، بل يصبح الخلية الأساسية فيه؛ ف(واو) بالإضافة إلى كونها حقيقة تاريخية، فهي أسطورة طارقية، تشير إلى واحة غناء ضائعة وسط الصحراء، يقول عنها الزعيم: "(واو) لن تبعث في مجملها على يد بني آدم. الإنسان دنس و"واو" فردوس مفقود. الخير خير ما ظل طليقا، فإن انتظم في قناة ومسته يد الإثم الملعون فسد وتفسخ كما يتفسخ ذهب الكنز الذي لم تتحر عليه ذبيحة تفك طلاسمه... لو لم توجد "واو" في مكان ما، يوما ما، لما كان للصحراء معنى في منظور العابرين، فواو هي الحلم والعزاء...

إن واو، الحقيقة المطلقة، لم يعثر عليها أحد من العابرين. لعل هذه الجنة المفقودة، إنما وجدت لتضيع وتندفع الطارق لأن يتبعها في رحلة الضياع الأبديّة. ألا تمثل "واو" الحلم والأمل والعقيدة وسط هذا الفراغ المطلق الرهيب؟. إن هذا الفردوس الضائع، لا يظفر به إلا العابرون الذين تقطعت بهم السبل وتاهوا في البيد وأمسوا على أطراف العدم، وفقدوا الآمال كلها في النجاة من القحط واليباب والحرارة القائظة والعطش وإغواء السراب اللعوب؛ حينئذ يكونوا قد أدركوا الغاية وحققوا الهدف من الرحلة المضنية... يتمتع الظافرون بـ "واو" بالتكريم وحسن الضيافة والسعادة التي لم يصادفوها في حياتهم قط، ولم تخطر على قلوبهم يوما...

وإذا ما دخل هذه الواحة إنسان، إلا وخرج منها غانما ظافرا بكنوز عظيمة لا يضل بعدها أو يشقى، إلى آخر أيام العمر. غير أنه إذا ما خرج العابر الظافر

من أسوار(واو) فإنها ستختفي¹⁷. فكأن واو هي رمز المستحيل الذي ما أن يدرك حتى يضيع.

وتدخل علامة واو في سياقات أخرى تتعلق ببناء واحة جديدة، يطلق عليها الزعيم اسم "الواحة الضائعة". وببناء هذه الواحة، يتغير نظام الحياة البدوية القائم على الترحال، وتتم مخالفة الناموس"القاضي بأن الموت يأتي مع اكتمال البنين"¹⁸. لهذا السبب نلفي السلطان يهدم بالليل ما بينيه الحكيم بالنهار؛ محاولة منه درء الخطر المحدق بالقبيلة جراء عملية البناء هذه. وهل يتم بناء الواحة الضائعة؟ يشير الخطاب الروائي إلى "أن واو الواقع والاستقرار تستمر في الوجود فتصبح محو لرواية (واو الصغرى) و(الدمية) وذلك لأن قدرة الإنسان على البناء تفوق قدرة الإنسان على الهدم"¹⁹.

إن تشييد الواحة الضائعة "واو" على أرض الواقع، قد يكون ذلك إيذاناً بنهاية حال الترحال بالنسبة للعابر؛ الذي كان يمثل السفر والبحث بالنسبة له غاية في حد ذاته... وأن عذاب رحلته كان طهارته.

- ألا يمثل التعلق بـ"واو الجنة، مشروعية الحلم وأهميته في الحياة، وأن الواقع المجدب المرير لا يمكن الاستسلام لجبروته دون رد فعل إيجابي، يحقق للإنسان إنسانيته ويمكنه من الاستمرارية في الوجود... ويضمن له التيه بكل حرية في فلولات الفكر؟!

- ومن زاوية أخرى، ألا يمثل سفر العابر المتواصل في الصحراء-على المستوى الفلسفي (الوجودي) رحلة الإنسان (العبيثة) الشاقة في البحث عن الحقيقة المؤجلة دوماً، وهي رحلة مضنية قد لا يبلغ معها هدفه المنشود ولا غايته المبتغاة؛ وإذا ما اعتقد يوماً أنه أوشك على بلوغ نهاية المطاف، وأنه قارب التخوم، ولاحت له تباشير مدينة النور(الحقيقة) من بعيد؛ وقتئذ تكون ساعة الحقيقة المطلقة قد أزفت والعمر قد أوشك على الانقضاء ؟

ألا ترمز هذه القضية بأن الزمن هو قاهر الإنسان، وهو القيد الذي يحول دون إدراك المستحيل؟... إننا نلفي في أعمال الكوني كثيرا من التأملات الفلسفية والوجودية المتناثرة هنا وهناك، مما يدل على عمق الرؤية لدى الكاتب الذي أدمج كل ما يرتبط بالحوادث والتفاصيل بأفكاره الفلسفية، وتأثراته بالمعرفة الإنسانية الشاملة وهو - في رأينا - الأمر الذي وسم كتاباته بالجمالية والعمق الفني والحس الإنساني الرفيع.

هناك قلق دائم عند الشخصيات الروائية والقصصية في أعمال الكوني، لعل ذلك ناجم عن الرغبة في امتلاك المعرفة أو الوصول إلى الحقيقة المنشودة، الفردوس المفقود "واو". "أنت تعرف أن أهل الخلاء جميعا سيكون وطنا ضائعا، وأنا يا ضيفي النبيل أبكي وطننا ضائعا".

بهذا الحنين تبدو العلاقة بالمكان الضائع، خاصة وحميمية وعميقة، لأنها علاقة يعاينها الجسد وتكابدها الروح.

ج - الصحراء وطن اغتراب:

أعمال الكوني تعبر عن صراع الإنسان في مواجهة الطبيعة الإنسان الغفل البدائي، مخلوق الطبيعة البكر، العذراء، التي لم يسبقها غير العدم. ونحن لا نجد لحظتين إنما هي لحظة واحدة، هي أقرب إلى لحظة النزول من الفردوس، وصرخة الإنسان الأولى، حين أحس بالضياع وسط عالم شرس لا يرحم، فبدأ يومها يبحث عن السبيل الذي يعيده إلى المهد الأول... لقد فقد الإنسان جنته، فواجه العالم وحيدا محملا بوزر الخطيئة. "وجدنا أنفسنا نعبر الصحراء لا نسكن الصحراء"²⁰. العابر يستسلم للمتاهة، سعيا للهاجس الخفي المتواري خلف الآفاق البعيدة، إن لم نقل وراء العدم، "يتباهى صحبان الأوطان بالانتماء إلى الأوطان، ويتباهى صحبان الصحراء بالانتماء إلى العدم"²¹. لهذا فالصحراء هي وطن اغتراب.

تشكل الرحلة بحثاً عن الأرض الموعودة، إيقاعاً شاملاً يتسلل إلى خلايا النص، بل يصبح الخلية الأساسية فيه. "العراف يعرف أن الصحراء إغواء، العراف يعرف أن الصحراء تستدرج، العراف يعرف أن الخروج إلى الصحراء سفر، لأن القارة العارية لا تستضيف من يخرج للتسكع؛ لأنها لا تعرف ناموساً غير السفر"²².

الهجرة والرحيل والعبور هو "خروج إلى التيه"، حيث لا عودة أبداً، إنه طقس الصحراء الذي لا بد منه. إن السفر إغواء الصحراء، "إيماء الميعاد المستحيل" الذي "يسوق العابرين إلى الصحراء، إلى الحياة ملوحاً بالوعد، واعداء بالواحة". إن العابر شقي بحلمه؛ هذا الحلم الذي يجعل من المكان الضائع الأفق الواحد الممكن والمستحيل في الوقت نفسه بالنسبة للعابر الباحث عبثاً عن يقين يروي ظمأه للوصول إلى الحقيقة المطلقة.

لعل قسوة الصحراء، وصعوبة الحياة فيها، وتقلبات الزمان الدائمة؛ وما تتركه من جراحات عميقة في وجدان العابرين. هو ما جعل الوعي الجمعي، والمخيال الشعبي، يلجأ إلى الحلم ويخلق الأسطورة الجميلة (كأسطورة واو) التي تعد - في رأينا - تعوضاً عن أوجه الفقد والحرمان الموجودة في الواقع المحسوس، المتسم بالقسوة والشراسة. واو هي الحلم المستحيل والأمل في الوقت نفسه؛ إنها الرمز الذي التقى في رحابه الجميع. وتلاقت كل الهواجس الإنسانية في الصحراء حوله.

أهل الصحراء يرفضون حال الاستقرار، إنهم في بحث دائم عن فردوس الخفاء، الذي لا يعترف بالمكان الأرضي، لأنه الرقعة المكابر المسماة في معجم الديانات: الأبدية.²³

العابرون تعصف بهم حمى الأشواق إلى المدينة الفاضلة، لذا تراهم يمارسون غواية التيه في البيد باستمرار، بحثاً عن يقين يروي ظمأ الروح.

قال البطل: "لا ينبغي أن نشد أنفسنا إلى أي أرض. لا ينبغي أن نركن إلى أي ركن. لا ينبغي أن نأمن أوطان الأسافل حتى لو استدرجتنا الأرباب نفسها بالأنصاب!"²⁴

الصحراء عند الكوني تمثل المكان المضاد لمفهوم الحصن، المدينة المسيجة، أو البقعة المحددة بمعالم، الصحراء رمز للمطلق الذي لا تحده حدود... لعل ضياع "واو"، أو الإحساس بضياعها، جعل المكان هاجسا في مخيلة العابرين ودافعا لهم إلى التيه بحثا عن الحلم المستحيل... الحرية مأثرة الصحراء:

تظل مأثرة الصحراء الرئيسة، في نظر أصحابها، هي تلك الحرية التي تمنحها لساكنيها، والتي يتمكنون بموجبها من الرحيل إلى كل الآفاق بحثا عن حلمهم الضائع. قال زعيم القبيلة للسلطان: "لقد قاينا الحياة بعدم، بفناء، بضياع ابدي اسمه الحرية"²⁵. واو التي يبحث عنها العابر في الصحراء هي في مكان آخر، أبعد من الصحراء... إنها الكنز المتواري خلف تخوم الصحراء، والذي أيقظ في نفوس العابرين الأولين جذوة الظمأ إلى اكتشاف الخفاء، وأشعل في الصدور الحنين إلى المجهول، وغذى جذوة البحث عما أدرك بالقلب ولم ير بالعين، على نحو ما يتجلى في هذا التساؤل الحزين: "فهل أنت حقا أيها البستان القديم، وهل أنت حقا يا نهر العسل الممزوج باللبن؟ وهل هذا حقا يا شجر الإبهام؟ وهل هذه أنت يا سدرة المنتهى؟"²⁶. "واو" هي المطلق الذي يجعل الشوق يلتهب الأحشاء، ويذكي جذوة الحدس الصوفي الرافض لمقولات العقل. إن علاقة "العابر" بوطن الرؤى السماوية، علاقة عشق ووفاء، فهو دائم الوجد والشوق إلى عالم نوراني مشرق مفعم بالنعيم والمسرات والابتهاج والسعادة؛ إنه يتطلع دوما إلى "واو" الجنة الضائعة يعلل النفس بالآمال: "بالميعاد الذي لا يدرك. في البعد الجديد يغلب الفرح، ويفيض القلب وجدا، يرتجف البدن برعش كالرقص، لأن وهجا تبدى في

الأفق لأن قبسا بدد ظلمات الأفق الأبدي الشاحب، فلاح، لغمضة قصيرة كومض البروق إماء تاق العابر لنيله طويلا وجاهد لمشاهدته أزلا كالأبد، فوسم الفراغ الصارم، الأبدي بإشارة كشرر الوحي، فرأى ما لم يستطيع أن يراه في المدى، ووجد ما لم يستطع أن يجده، وجد ما لم يطمع في أن يجده. فكيف لا يتزعزع الجسد الهزيل برعش الوجد؟ وكيف لا يفز من المقلة دمع الحنين؟²⁷.

تنهض البنية اللغوية في هذا الملفوظ السردى- وغيره كثير- على تجربة حلولية. ذلك أن العلاقة بالمكان تتجلى أكثر عمقا في التحام العابر بالصحراء التحاما خصا، يكاد يبلغ حد الفناء الصوفى. فالعاشق مثقل بهموم وجد عارم إلى "الفردوس المفقود"، مدينة النوار التي يرسمها الخيال الشارد المجنح.

تؤدي فكرة الاتحاد، بمفهومها الصوفى، دورا مساعدا في تنمية البعد الدينى والأسطوري واستمراريتهما، في الخطاب السردى، وكأن الصحراء، التي تتوارى خلف تخومها واو فضاء مقدس، عالم نوراني يهفو الفؤاد شوقا إليه.

إن السفر سمة أهل الصحراء، فحتى الحفار، في رواية واو الصغرى، الذي لم يمارس غواية السفر والرحيل نحو المدى المطلق؛ مارسها في اتجاه أعماق الأرض بحثا عن سر الحياة الأولى (الماء): "ربما لهذا السبب لم يسلك السبيل الذي سلكه الآخرون في رحلة العبور. سلك الآخرون طريق الأفق، وسلك هو طريق الأعماق. سار الأقران، كما سار الذين سبقوهم، في سبيل الخلاء المديد، ونكس هو الرأس وانكفا إلى الجوف فأنشأ في صدره بيته قبل أن يبتني الأقبية في التراب، فرارا من تيه المدى، واحتماء بالأم من غول الفقد"²⁸.

فليس للحفار من مهرب سوى أنثاه، الأرض يجد في صدرها ملجأ يلوذ به من تيه المدى وهاجس الفقد. رحلة الحفار رحلة داخلية نحو الأعماق. تثير الأرض عنده حنينا خاصا واقتزانا لا فكاك منه، أمومة أو عشقا.. في الرواية الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن الشخصيات تحاول، من خلال وجودها

الفردى، وعزلتها في الصحراء، أن ترتبط بالأرض ارتباطاً حميمياً. تعوض به حالة الفقد الطاغية²⁹.

بمثابة ملاحظة: الجنة السماوية - نقيض - الصحراء.

وأياً كانت أوضاع سكان الصحراء، وأياً كانت حدود إيمانهم بالمعتقدات السماوية التي يؤمنون بها، فقد جاءت "الجنة" السماوية (الحلمية) نقيضاً مطلقاً للصحراء. "... إننا نكتشف أن لا وجود لـ "واو" في وطن الصحراء". يؤكد العرافون على عبثية الرحلة وأن سفر العابرين في البيد بحثاً عن المكان الضائع، غير مجد وهو لا يعدوان يكون ركداً وراء سراب لعوب؟ وأن الصحراء ما هي إلا أرض منذورة لميعاد مجهول³⁰!

ومع ذلك نلفي هؤلاء العرافين لا يتخلون عن طقوس السعي المرتبط بواو بحثاً عن السكنى المقدسة. تقول الأسطورة الطارقية التي تتحدث نشأة الصحراء الكبرى، إن من حكماء الصحراء كثيراً ما كانوا يضربون صدورهم النحيلة ليرددوا واو هنا. ققص الصدر أسوارها والسكون لغتها. والبلهاء هم الذين يبحثون عنها في المفازات الخالية³¹ إن "واو" توجد في قلب المرء، أي أن الفردوس لا يقع خارج حدود الذات. هذه الفكرة التي يشير إليها الخطاب قريبة من المثل اللاتيني الذي يقول: Ne³² cherche rien à l'extérieur de toi même.

الهوامش:

1. ينظر هزاع شريف هزاع. إبراهيم الكوني وأفاق أسطورية جديدة. الرافد، ع: 46 يونيو، الشارقة. دار الثقافة والإعلام. 2001. ص76.
2. نظر العابرون إلى المرأة والصحراء نظرة واحدة. لذا تراهم يشبهون الصحراء. في مواسم الجمال. بالمرأة بوصفها رمزاً للإثمار والخصوبة. ويشبهون المرأة بالصحراء على نحو ما يتجلى في الآتي: "المرأة يا شيخنا مثل الصحراء التي تمتد أمامك إلى الأبد. تبدو قاحلة، قاسية، باعثة على اليأس، لكن أعماقها تخفي سحراً وأسراراً وكنوزاً وحياء. واكتشافها يحتاج إلى الصبر والخبرة.

هذه حكمة الصحراء. وأنت أدري بها أكثر مني". البئر 132. لقد اتجه الذهن البشري منذ بدايات تعامله مع الصحراء إلى جعلها تستبطن غير ما تظهر وساعد على ترسيخ هذه المفارقة، انكشاف الأمداء الصحراوية عن واحات فاتنة مخبوءة في الامتدادات الميتة، ووصلت المفارقة بين الظاهر الفقير والباطن الغني إلى حدودها القصوى بعد اكتشاف البترول والفسفاط وغيرها من الثروات الطبيعية لكثيرة...

3. ينظر عبد الحميد المحادين. جدلية المكان والزمان ولإنسان في الرواية الخليجية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص60

4. إبراهيم الكوني. المجوس، ص350.

5. إبراهيم الكوني. الدنيا أيام ثلاثة. دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت ط1، 2000. ص187.

6. ينظر اعتدال عثمان. قراءة استطلاعية في أعمال الكوني. فصول، م16، ع4، ربيع 1998، ص231

7. إبراهيم الكوني. صحرائي الكبرى. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1998، ص14

8. ينظر المرجع نفسه ص15/14.

9. voir Luc-Willy Deheuvels & autres. (*Le Lieu de l'utopie dans l'œuvre d'Ibrahim Al-Kawni*) in la poétique de l'espace dans la littérature arabe moderne. sous la direction de B.Hallaq, Paris, Presses Sorbonne Nouvelle, 2002, pp25-42.

10. إبراهيم الكوني. في طلب الناموس المفقود.. دار النهار للنشر، بيروت، ط1، 1999، ج2، ص215..

11. مندام. كما تؤكد ذلك أعمال الكوني السردية. هو جد الطوارق الأول الذي طرد من الواحة الغناء واو لأكله اللقمة الحرام، فواجه العالم وحيدا حزينا محملا بخطيئة عصيانه. ولم تسلم ذريته من صنيعه القديم، فتحملت كفلا من وزر الخطيئة وتاهت في البيد أملا في العثور على سبيل يوصلها إلى الفردوس المفقود.

12. إبراهيم الكوني. رواية السحرة ج1، ص 127/126. الخسوف3، خبار الطوفان الثاني، ص 136.

13. ينظر المجوس، ج، ص 444/445 بر اليختعور ص 53/54 ديوان النثر البري ص26
14. المجوس ج1، ص 444
15. م ن ، ص53/54.
16. م ن ، ص82
17. الدنيا أيام ثلاث. ص209.
18. أنوبيس، ص214
19. واو الصغرى. 73
20. ينظر: إبراهيم الكوني. صحرائي الكبير (نصوص)، ص43.
21. إبراهيم الكوني. الدنيا أيام ثلاثة. دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت ط1، 2000، ص186
22. المجوس ج1، ص350.
23. البحث عن المكان الضائع. ص 28-29.
24. واو الصغرى، ص8.
25. الكوني. واو الصغرى ص 212
26. ياسين النصر. نزيل الحجر... درامل الصحراء الذاتية. أبواب، بيروت، دار الساقى، العدد22، خريف 1999، ص167.
27. يبدو أن الكوني (المثقف) مطلع على تعاليم كونفوشيوس، وقد أورد له عبارة. في رواية واو الصغرى، ص179- جاء فيها: "خلقت السمكة للماء، وخلق الإنسان للسيل" أي للسفر. وكأنها إشارة من قبل الناص، تشي بعبثية الرحلة التي يقوم بها الإنسان في هذا الكون الشاسع بحثاً عن المجهول، أو المطلق أو الأبدية. إنه لن يصل أبداً إلى مناه؛ كما لم يصل العابر إلى فردوس الخفاء واو.
28. الكوني. المجوس ج1، ص351/352
29. Voir Ibrahim Al-kawni & Autres .la poétique de l'espace dans la littérature arabe moderne. sous la direction de B.Hallaq, Paris, Presses Sorbonne Nouvelle, 2002, p99.
30. بر الخيتعور. ص32
31. م ن ص 145/146.

32. ينظر الكوني نزييف الحجر، ط1، دار الرئيس، لندن، ط1، 1990، ص31.
33. محسن جاسم الموسوي. انفرط العقد المقدس. منعطفات الرواية بعد نجيب محفوظ. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1999، 1، ص271.